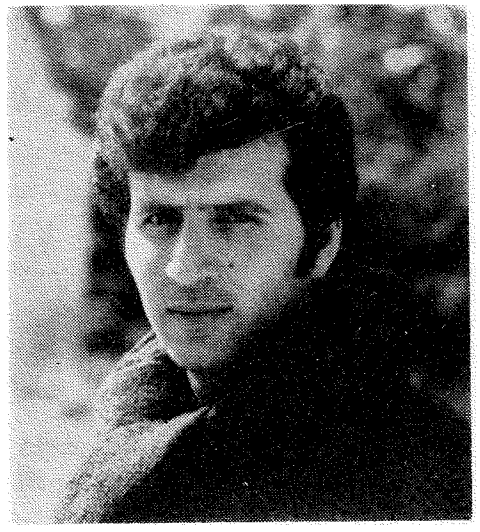

صفحات من دفتر الفلسطيني التائه

حتى إشعار آخر..

واشتقت يا أمي اليك ، اشتقت يا أمي كثيرا
لا غير صندوق البريد
يهب اليتامى التائهين وراء آلاف الحدود
تهليلة أو حبل سرّه
وعليك يا أمي السلام ،
وفي الحضارات التي قتلت أبي كل المسرّه !

لا غير صندوق البريد
علقت منديلي عليه (شراع ملاّح عنيد)
علقت منديلي المبلل بالدموع عليه. صارت لي سفينه
لكنني قرصان حبي . آخ . أرتكب الحنين الى ملاذك
كالجريمه
وجنودهم وجنودنا وجنود U.N
جاهزون لقتل قبّرة يتيمة ..

في آخر الايام ، صندوق البريد
بابي اليك ،
وبيننا
في آخر الدنيا
الاساطير الدساتير الاساطيل الوزارات الاذاعات
السجون

وتقول آلاف الملفات الخزينه
كالمومياء اللغز في الهرم الجديد مقر U.N :
هللي وتهللي يا ايها الامم الحزينه
وتقول :
يصبح كل شيء جاهزا في الشرق
الا أن تكوني أو اكون .

(العابرون يقهقهون لان منديلي الشراع
نامت عليه الريح كالقط السعيد
ويظل صندوق البريد سفينتي
لكنها لا تستعيد ولا تعيد .)

غريب كصقر قريش
كنخلة صقر قريش

واشتقت يا أمي اليك ، اشتقت يا أمي كثيرا
لكنني والحمد لله الرحيم
في صحة لا يستهان بها ، لان الذاكره
٦ على ٦ ،
وزرقاء اليمامه
في الانف . لا ، في القلب . لا ، في الاذن ،
او في معطف ارسلته للمغسله
لا تقلقي . بصري حديد (تلك تلك المعضله)

نبضي دبابيس ونمل . كيف بلعام العجوز ؟
هل عاد ؟
أم نطقت حمارته الذكيه بالنبوءه
واستفنت السلطات عنه ، وأودعته السجن ؟

(بلعام التعيس
يخشى وجوه محققي البوليس
يخشى المحكمه
ومراسلي الصحف اللميظة
والفضوليين
واللغة الفصيحه
ويظن وقع خطاه في الدنيا فضيحه !)

أمس انتقلت لفندق قرب المحطه
لكن افعى الحلم لم تيأس ، وعادت رافقتني
حملت حقائبها ، وعادت رافقتني
(تحت الوسادة . دائما . أفعى الرؤى تحت الوساده
وصرير اسناني ، وسم الحلم ، عاده)
ورأيتهم !!

يتوقفون امام باب الموت .
يبتسمون .
تنطلق الاشاره
من منزل هدمته أيدي الله والامم الحديثة والحضاره
يتنفسون هنيهة ،
يتقدمون ..... ويسقطون
وتدفّ في ذعر عصافير المغارة
ويوزع الضباط للقتلى الشتائم
ويوزعون على الجنود الصيد
.. أوسمة الجداره .

ورأيتهم في ظل قنطرة غريقه
في ليلة اخرى . وكانوا يحملون على الاكف قلوبهم
(كانت مصابيح الطريق الى الحقيقه)
ولعلهم طرحوا السلام
اخذوا معاطفهم
بكوا وتبسموا وتعانقوا بالباب
وانفرزوا خناجر في الظلام

ولعلهم أوصوا بزوجات وأطفال نيام
قبل ارتعاش شجيرة العنب المريضة في الحديقه
قبل السقوط مضرجين بحزنهم
لكنهم
لم يسمعوا رد السلام
قبل السقوط بلا وثيقه
وبلا كلام ....
والضابط المغرور
يقلب بالحذاء العسكري Mode in U.S.A
جثتي ،
وتطلب طفلته
مني الطوابع (لم أجرب يا ابنتي هذي الهوايه
عفوا ، ولكني اذا يوما ...)
وتبسم ،
وهي طيبة وساذجة ، كأختي .
أمي الحبيبه
سيكون شيئا جيدا
أن تفتحي الشباك من حين لحين
أخشى على كتبي القديمة
سطوة العث اللعين ..

في آخر الاسبوع شاهـــــدنا مباراة التزلج فوق
سطح الماء ، في البحر القريب
ورأيت مار بطرس
وسألته : ماذا ستفعل ؟
قال : امشي فوق هذا الماء . امشي كالمسيح !
وصفق المتفرجون ..
لكنه أهوى بجثته الثقيلة في رماد البحر
وانفجر الجميع مقهقهين .
وذكرت منديلي وصندوق البريد
ذكرت يا أمي سفينتي التي لا تستعيد ولا تعيد
وبكيت من شوقي اليك ..

غريب كصقر قريش
كنخلة صقر قريش
ولكنني لست صقرا
وأهلي ليسوا قريش !

بالله ، كيف الحال يا يمّه على عمي أمين ؟
ما زلت أذكر حين صادرت الوكاله
بستانه الشرقي ،
أذكر كيف دار على البيوت
يبكي ويضحك وهو يقرأ في الرساله :

« السيد ال ...
بستانك الشرقي ملك الدولة ،
الاوراق جاهزة تفضل كي توقعها ،
نقودك أصبحت في البنك ، فرع ال ...
أنت تعلم ان سعر الارض لا ....
والحرب باهظة .... والا !.. »

لو متّ يا عمي أمين !
لو متّ يا عمي ولم تجـــرع قرار الكأس قطرانـا
وزقوما وطين.
بستانك الشرقي أعتق خمرة (والله يشهد)
لكنها ملأت كؤوس الآخرين
لو متّ يا عمي الحزين !

قلبي دليلي
وأخاف يا أمي مكائدهم وآفات الفصول
وأخاف ثوار المقاعد والجرائد والمقاهي
واخاف سور الدار ــ بواباته خشبية منخوبةالاعماق
والاقفال شمع احمر ــ والحارس المشبوه منقطع بعيد
أبيقور نصّبه وزير دفاعنا والقائد العام الوحيد
ووكالة الانباء تصرخ (ثم تنعب من جديد)

قلبي دليلي
وأخاف يا أمي البيان المشترك
وأخاف أولاد الحرام
أخاف محترفي النظام
اقراص منع الحب والتفكير ، لا اقراص منع الحمل
غايتهم ،
هنا وضعوا الشرك
وهنا يجابهني دمي ..

وهنا أجابه مستحيلي
وأخاف يا أمي ، فعفوك ، ارسلي لي
حبات زيتون قبيل سقوط زيتون الجليل
وأرسلي لي
تفاحتين وبرتقاله
وأريد ـ للذكرى ـ كلبشتي الجميله
تلك التي صنعت تناسب معصميّ من الطفوله
ونمت معي عشرين عام
ونمت معي حتى الكهوله
(من مادة التوراة : في البدء الظلام) ..

يمّه الحبيبه
سأبيع بعد غد قليلا من ثيابي
وأبيع بعض دمي (فبنك الدم اقرب من شبابي)
وسأرسل المال القليل ، اليك ، من ثمن اغترابي
ولانني جوعان ، بيعي
برواز صورة والدي
وصوانك الاثريّ ،
بيعي فرشتي وقصائدي
ولترسلي بعض النقود .. مع البريد العائد
جوعان يا أمي . أنا . والجوع يعرف سر جوعي
بيعي عظام ابيك ... بيعي !

الطقس اجمل ما يكون
لو ان تانيوشكا معي
والبنت تانيوشكا تحب سفينة حمراء
في بحر صغير ، فوقه قوس القزح
وأنا سأهديها قبيل الموت في منفاي سلة فاكهه
وتكون فيها صورتي (كسفينة حمراء
في بحر صغير ، فوقه قوس القزح)
والبنت تانيوشكا ستهديني الفرح
يوما قبيل الموت في منفاي
او يوما قبيل عناقنا (نحن الثلاثه)

الطقس اجمل ما يكون
خريف هذي القارة الذهبي حلم اشتهي ألا يزول
لكن اوراق الشجر
تهوي (الحكومات العميلة) آه .. تهوي في الثلوج
وفي الوحول
واطل من شباك غرفتي الجديده
وتلوح لي عبر الزجاج
هذي المدينة . آه يا أمي . تلوح غريقة قفراء طاهرة
بعيده
وتلوح لي مدني البعيده
عبر الدموع ،
قريبة . خلف الزجاج . قريبة . لصق الزجاج..
الطقس أجمل ما يكون
ومسلم بحنين زهر النار للوادي المبلل بالندى
لكن هذا الطائر العالي المحلق في المدى
يبدو قتاما ساكنا . يبدو جمادا للعيون !

والارض أجمل ما تكون
لكن اشجاري واطفالي واعشابي تموت
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبين الله والدنيا وابواب السجون
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبين البندقيه
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبينك يا أميمتي الشقيه !

غريب . كصقر قريش
كنخلة صقر قريش
ولكنني لست صقرا
وأهلي ليسوا قريش
غريب .. كنخله !

كصبية خجلى ، تلم الريح اطراف الرداء
وتجوب أرصفة المدينه
ركضا ، لتسبق غيمة حبلى وشارات المرور
ركضا ، وتضرب معطفي الريح اللعينه
فيطير كالباراشوت .. (كالبالون ..)
ترحل جثتي تحت السماء
وأرى الجسور
... أرى الجسور
... أرى الجسور ..
(ويكون لي يوما من الايام جسر ، ثم اعبر
ثم يعبر .. ثم نعبر ..
لا تقلقي . سيكون . يمّه
وسأعبر الجسر الجديد اليك
كلفني عذابي بالمهمه !)

والعفو يمّه ،
من تمر نخلتك الحزينه
كوّنت أصنامي ،
وجعت اليوم ،
عفوك لو أكلت اليوم أصنامي اللعينه
وسأعبر الجسر الجديد اليك يا أمي اليك
سأعبر الجسر الجديد اليك يا أمي سأعبر
وليكن موتي وراء الجسر تذكرتي اليك ...

موسكو — **سميح القاسم**